في الحاجة إلى السيميائيات:

قراءة في كتاب "السيميائيات" مفاهيمها وتطبيقاتها

فوزي بو خريص*

١- في الحاجة إلى السيميائيات:

عن منشورات الزمن(سلسلة شرفات) صدر للبحث سعيد بنكراد المتخصص في مجال السيميائيات كتاب جديد بعنوان: السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها: إن أهمية هذا الكتاب نابعة من حاجة القارئ العربي اليوم (المتخصص وغير المتخصص) إلى التعرف على المعرفة السيميائية في تاريخيتها وتلقى أهم الإسهامات العلمية في هذا المجال وبلغة الضاد وذلك بفضل الجهود الاستثنائي الذي بدله الباحث في الترجمة لا سيما وأن أغلب ما انتج في هذا الحقل العلمي هو باللغات الأجنبية ويزاوج الكتاب في مشروعة هذا بين العرض النظري لأهم مفاهيم ومبادئ علم اللسانيات كما ظهرت مع مؤسسيها(فردناند دو سوسير وتشارلز بورس) وكما تطورت عبر التاريخ والدراسة التطبيقية التي تراهن على استثمار النظرية في فهم الوقائع والإنتاجيات الرمزية الإنسانية.

وإذا كانت أغلب الدراسات النقدية تحيد في الكثير من الأحيان عن استراتيجيتها الأساسية المتمثلة في إنتاج معرفة حول الموضوع المدروس وتتحول إلى تطبيقات صورية والى نوع من تحصيل الحاصل كما لو أن هاجسها هو إثبات صحة النظرية التي تنطلق منها وليس استثمار هذه الأخيرة في فهم الموضوع المدروس مما يحولها إلى نوع من " العبث التقنوقراطي" ص ١٢ فإن كتاب الأستاذ سعيد بنكراد ينطلق من هاجس بيداغوجي حيث يراهن على استدراج القارئ غير المتخصص إلى شرك السيميائيات وذلك بإعطائه أمثلة ملموسة للتخفيف من عنف اللغة النظرية التجريدية التي تقتضيها خصوصية الموضوع وذلك من خلال المراوحة بين المفاهيم النظرية الغارقة في التجريد والأمثلة الواقعية المنغمسة في الشخص والمحسوس.

٢- السيميائيات وسؤال الهوية:

إن ما يحدد استقلال علم من العلوم من الناحية الابستمولوجية هو توفره على موضوع محدد ومنهج ملائم وهكذا تتحدد السيميائيات باعتبارها علما يبحث في المعنى وفي السيرورة التي تنتج وفقها الدلالات وفي أنماط وجودها(ص٨) فالسيميائيات في معناها الأكثر بداهة ليست شيئاً آخر سوى تساؤلات حول المعنى.

وبذلك يمكن القول أن السيميائيات تصادر على أن" النصوص" كل النصوص كيفما كانت مواد تعبيرها يجب النظر إليها باعتبارها إجراء " دلالياً" وخزاناً من الاحتمالات الدلالية وليس تجميعاً اعتباطياً للعلامات(ص٧) ومعنى ذلك أن موضوع السيميائيات غير محدد في مجال بعينه فهي تهتم بكل مجالات الفعل الإنساني انها كما يقول بنكراد" دراسة للسلوك الإنساني باعتباره حالة ثقافية منتجة للمعاني"(ص ١٦٤) وهذا يجعلها تحيل على حقول معرفية أخرى لكن رغم ذلك استطاعت السيميائيات أن تحقق استقلالها المعرفي من خلال خلق موضوع للدرس وبتحديد أساليب في التصور والتحليل(ص٩) ومن خلال تبني واستثمار ما يوفره النموذج اللساني من أدوات ومفاهيم وأساليب في التحليل والرؤية"ص(٧٦)

ومن الناحية الإجرائية تظل انسب طريقة لتناول تاريخ السيميائيات في نظر بنكراد هي: بالمراوحة بين لحظة التأسيس والتصورات التي استندت عليها والمآل الذي آلت إليه من خلال تحديد موضوعاتها المتنوعة لا سيما أمام تشعب المسارات التي عرفتها السيميائيات بعد بورس- سوسير.

فكما يرى كاسيرر فإن أهم ما يميز الكائن البشري هو أنه" كائن رامز" لأنه بفضل الرمز يحصن الإنسان نفسه من الضياع والتيه وسط غزارة وغنى الواقع الموضوعي فليست الدلالة وطرق انتاجها وسبل تداولها سوى حصيلة حركة ترميزية" قادت الإنسان إلى التخلص من عبء الأشياء والتجارب والزمان والفضاء" ص ٦٤ ويتجاوز العالم الرمزي الذي أبدعه الإنسان مجال اللغة ليشمل وقائع رمزية أخرى(الأسطورة – الأدب – الصورة) لكن من الناحية الابستمولوجية يمكن القول أن المبدأ العام الذي يحكم تناول الوقائع غير اللسانية هو" دراسة هذه الوقائع كما لو أنها وقائع لسانية".

٣- زمن التأسيس:

إن حضور السيميولوجيا في لسانيات سوسير هو حضور بالقوة حضور سيأخذ صيغته الفعلية فيما بعد تأسيس علم اللسانيات وبفضل هذا التأسيس نفسه(ص ٤٣) فرغم أن سوسير لم يتعرض في مشروعه الفكري للسيميولوجيا إلا بشكل عرضي وبصيغة مستقبلية" إلا أنه بفضل حسه الثاقب أدرك أن اللسان أو النموذج اللساني باعتباره أرقى ما أنتجته التجربة التواصلية عند الإنسان يشكل مرجعا لدراسة باقي الأنساق التواصلية الأخرى وهو بذلك يعد بحق الأب المؤسس لهذا العلم.

حتى أن ما قام به سوسير على مستوى حق اللسانيات والسيميولوجيا سيتردد صداه في حقول علمية أخرى في الأنثروبولوجيا مع ستراوس وفي التحليل النفسي مع جاك لاكان...

وحتى بعد سوسير لم تستطع السيميولوجيا الانفلات من اسر وتاثير اللسانيات إذ يظل اللسان متمتعا بأهمية استراتيجية بالنسبة للانسان لإدراك العالم المادي الذي عهو جزء منه وللتفاعل مع العوالم الرمزية والافتراضية التي ابدعها والتي يشكل اللسان جزءاً لا يتجزأ منها.

أما فيما يخص سيميائيات بورس فقد ابرز الباحث خصوصيتها ذات المنحى الفلسفي حيث لا تنفصل السيميائيات عند بورس عن المنطق والفينومينولوجيا.. ولا تتجسد هذه الخصوصية على مستوى الرؤية والتصور فقط بل هي تتبلور بكل جلي على مستوى الجهاز المفاهيمي الذي ابدعه بورس خاصة مفهومه للعلامة في ارتباطه بمفاهيم الماثول الموضوع والمؤول.

وما يميز قراءة الاستاذ بنكراد لتاريخ السيميائيات هو أنها تتسلح بوعي نقدي وتضع مسافة عقلية بينها وبين موضوعها تؤهلها للتحرر من اسر وتاثير ما تدرسه وفي هذا الاطار يرى بنكراد أن بعض ما جاء به بورس لم يعد ينسجم والتطورات التي شهدها علم السيميائيات اليوم إذ اضحت تصنيفات بورس المتعددة للعلامات(الاصلية والفرعية) على سبيل المثال متجاوزة وبلا قيمة عليمة(ص٧٢) بينما يظل تصور بورس الدينامي للتأويل(ورؤيته الخاصة للسيميائيات كنظرية تأويلية" أهم ما جاءت به نظرية بورس السيميائية(ص٧٣) إذ ما زال يكتسي أهمية خاصة داخل حقل السيميائيات ومازال مؤثراً في حقول معرفية أخرى.

٤- السيميائيات: من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل:

يستهل الباحث دراسته التطبيقية بتناول سيميولوجيا الأنساق البصرية من خلال نموذج الصورة ويستهدف بذلك عرض أوليات إدراك الصورة والعلامة الايقونية بشكل عام.

وكما هو معلوم فإن البحث عن هوية قاد السيميائيات التي يتبنى أدوات ومفاهيم وأساليب التحليل والرؤية التي يوفرها النموذج اللساني ويتأسس هذا الاختيار على افتراض أن الوقائع غير اللسانية شبيهة من حيث الجوهر التواصلي ومن حيث البعد التدليلي بالوقائع اللسانية(ص ٧٦) أي أن القوانين التي تتحكم في اشتغال الأنساق الأخرى مبنية وفق قوانين اللسان وكما أكد دو سوسير فموضوع السيميولوجيا يتكون من مجموع الانساق ذات الطبيعة الاعتباطية" ولو أن الوقائع غير اللسانية دائماً بالبساطة التي يتميز بها اللسان(ص٧٧).

وبالنسبة للوقائع البصرية فهي في تنوعها وغناها تشكل" لغة مستنفة" أودعها الاستعمال الانساني قيماً للدلالة والتواصل والتمثيل فالدلالات التي يمكن الكشف عنها داخل هذه الوقائع/ العلامات هي دلالات وليدة تسنين ثقافي وليست جواهر مضمونية.

موحى بها(ص ٧٩) والتسنين الذي يحكم العلامات الايقونية هو نفس التسنين الذي يحكم التجربة الإنسانية ككل ص ٨٠ .

إن قراءة الواقعة البصرية(الصورة في حالتنا) وفهمها يستدعيان سنناً ثقافيا سابقاً يتم عبره التأويل والتدليل ص ٨٢ وبشكل عام" فإن كل شيء يمكن أن يشتغل كعلامة شريطة استخلاص دلالة تعود إلى ثقافيا المتلقي وتعود إلى السياق الذي استعملت فيه هذه العلامة أو تلك" ص ٨٧,

إن اللغة البصرية هي لغة بالغة التركيب والتنوع وتستند من أجل بناء نصوصها إلى مكونين: ما يعود إلى العلامة الايقونية" إنتاج بصري لموجودات طبيعية: وجوه أجسام) وما يعود إلى العلامة التشكيلية(أشكال وخطوط وألوان..)(ص٨٨) وبالتالي فالمضمون الدلالي للصورة لن يكون بدوره إلا تركيبياً ص,٨٩

ويرى الباحث أن تأويل الصورة مثل كل تأويل يقوم على استعادة المعاني الأولية للعناصر المكونة للصورة وضبط العلاقات التي تنسج بينها ضمن نص الصورة" ص ٩٣.

لكنة يرى بالمقابل أن كل تأويل ممكن للصورة يجب أن يستند إلى معرفة خاصة بالحضور الإنساني داخل الكون من خلال مجمل لغاته وعلى رأسها لغة جسده" ص ٩٢ وذلك من خلال قراءة خاصة للجسد وكما هو معلوم فإن الجسد(كنموذج تطبيقي أيضا) يمثل نسقاً تواصلياً فهو بمثابة لغة أو هو لغات لها قوانينها ومنطقها وأسرارها أيضا: وهذا يفرض على الباحث: الكشف عن الطريقة التي ينتج بها الجسد دلالاته".

ولن يتسنى ذلك من الناحية الإجرائية إلا بالتركيز على الاستعمالات الاستعارية للجسد وتجاوز أبعاده النفعية المباشرة لأن الجسد بقدر ما يوجد داخل عالم الأشياء كجزء لا يتجزأ منها بقدر ما ينفصل عن الأشياء ليندرج ضمن حقل الثقافة وذلك بفضل تشكله كدال وبفعل قدرته على توليد الدلالات(ص١٢٥).

ويقدم الباحث نموذجاً تطبيقياً آخر يستثمر فيه الآليات التي تتيحها السيميائيات لتحليل الصورة من خلال قراءة سيميولوجية لعمل فني هو عبارة عن البوم فوتوغرافي للمخرج السينمائي المعروف داود أولاد السيد وتعامل الباحث في مرحلة أولى مع العمل كوحدة منسجمة أو كنص قائم الذات يحيل ككل نص على عالم دلالي معين في الزمان والمكان وعبر الاشتغال على صورة واحدة في مرحلة ثانية يثبت ذات الفرضية أي" أن كل صورة إنما تقوم بخلق وضعية تحيل على موقف نمطي يمكن تعميمه على كل الوضعيات الممكنة" ص١١٧" ويبين الباحث بأن الصور المكونة للألبوم تروم عبر تحقيقها ومن خلال إحالاتها الرمزية" تجاوز المعطيات المحسوسة وتعطيل قوتها التمييزية لاستشراف المجرد والغريب والمدهش" ص١٠٦".

وبذلك فإن عمل داود وهو يراهن على تقديم" مواقف" و" حالات" خاصة بالمغاربة كان لزاما عليه أن ينتقي وأن يقصي أن يضم وان يحذف.. فتلك من مقتضيات بناء كون دلالي منسجم ص ١١٠" وينتهي الباحث في الأخير إلى حقيقة" أن العام لا يمكن أن يولد من نفسه كما لا يمكن للقيمة المتحققة أن تخرج عن دائرة النسق المولد والمندمج. فالخاص اسبق في الوجود عن العام وعبر العام وداخله تولد النسخ المتحققة"ص ١١٨".

٥- إشكالية المعنى:

على ضوء ما تقدم على مستوى الأمثلة التطبيقية السابقة يحاول الباحث الخوض في إشكالية المعنى من خلال ملامسة بعض القضايا الخاصة بطبيعة المعنى وشروط إنتاجه وبنائه والسبل المؤدية إلى الكشف عنه وتحديد مستوياته" ص ١٤٤" أو بتعبير آخر عبر الخوض في ما يمكن أن نصطلح عليه بالاقتصاد السياسي للمعنى من خلال البحث في شروط و" قوانين" إنتاج وتداول واستهلاك أو تلقي المعنى.

فالمعنى بقدر ما يتحدد بالما- قبل، أي بمادة مضمونية سابقة في وجودها على التحقق بقدر ما يرتبط بالما بعد أي بسيرورة معينة للتعرف والادراك عبر هاتين العمليتين تتشكل سيرورة التدليل التي تقضي إلى بناء النص... ويكتسي الحديث عن المعنى طابعاً إشكاليا بالنظر إلى الخاصية المركبة لظاهرة المعنى وأنماط تحققها. لكن رغم ذلك ربما بسبب ذلك يشكل المعنى باستمرار موضوعاً للتفكير والتأمل مادامت الوقائع والممارسات الإنسانية لا تتوقف عن إنتاج وإعادة إنتاج الدلالات.

ويتم التمييز بين نوعين من التدليل: تدليل مرتبط بأنساق غير لسانية (أشياء الكون وأحداثه وطقوسه) وآخر مرتبط باللسان. لكن تبقى مسالة الكشف عن المعنى حكراً على اللسان فقط فاللسان هو النسق المؤول والأكثر قدرة على الكشف عن مجمل التسننيات التي تبلورها الممارسة الإنسانية باستمرار"(ص١٤٦).

وبشكل عام فالواقعة تدل لأنها قابلة للفصل والعزل وقابلة تبعا لذلك للقراءة بوصفها وحدة معنوية تامة كما أن الواقعة لا تكون كذلك إلا في حدود إحالتها على معنى(معاني) يجعل منها كيانا قابلاً للإدراك والمعاينة ضمن سياقات متنوعة ولو أن هناك علاقة جدلية بين حدود المعنى وحدود الواقعة ص ,١٤٨

وغالباً ما يتم التمييز في الواقعة بين مظهرين: مرئي/ ظاهري ومستتر/ ضمني ص ١٤٩ وتنطلق المسيرات التاويلية في بنائها لكونها الدلالي من الأساس المرئي للواقعة لتتجاوز ذلك إلى إعادة بناء قصيدة النص .ص ١٥٠ بيد أن قراءة النص ليست مسالة اعتباطية بالنظر إلى أن كل واقعة تشتمل بشكل ضمني أو صريح على سلسلة من الارغامات التي تحدد بهذا الشكل أو ذلك قراءتها الممكنة" وبالتالي فإن ما ينظم الواقعة في كليتها هو نفسه ما يحكم التدليل أي يسهم في بزوغ الدلالة وانتشارها".

والواقع أن البحث عن الدلالات لا يتم بالضرورة خارج الأسوار الواقعة لأن ما يوجد خارج الأسوار يحضر في الواقعة على شكل إحالات رمزية واستعارية وإيحائية أو بتعبير آخر ما يوجد في" الداخل" يوحي ويتضمن ما هو موجود في" الخارج"(ص١٥١) وبذلك فإن المعنى لا يصير كذلك إلا في علاقته بالنسق المولد له كسلسلة من الارغامات التي نقوم من خلالها بإنتاج وتداول واستهلاك الواقعة ولكي" تجعل من المعنى كياناً قادراً على التدليل علينا ان نسلم مبدئياً بوجود سقف مجرد للقيم الدلالية ص,١٥٢

وذلك يرتبط بطبيعة الواقعة الدالة التي تشتمل على سلسلة من الارغامات الداخلية المحدودة لبنائها وللطرق التي عبرها تنتج معانيها ومحددة في نفس الآن لكل المسيرات التاويلية الممكنة(ص١٥٥).

وبالتالي فكل اختيار على مستوى التاويل هو في الان ذاته حرية في الانتقاء وإذعان لارغام والمنطق يقتضي الحديث عن تعدد القراءات والمعاني بدلا من" لا نهائية القراءات والدلالات" ص ,١٥٦

بيد أن القول بتعدد المعنى يفضي في نظر الأستاذ بنكراد إلى حقيقة أخرى تتعلق بالطبيعة الأيديولوجية للمعنى حيث أن هناك ميكانيزمات تتحكم في عملية إنتاج المعنى وليست الأيديولوجيا هنا سوى مجموع القواعد المسؤولة عن توليد المعنى فكل كون نصي يقوم على نوع من" التقليص والتقليص هو انتقاء والانتقاء لا يمكن أن يكون سوى اختيار أيديولوجي أي انحياز إلى تحقيق على حساب تحقيقات أخرى ممكنة"(ص ١٦٠) وهو ما يجعل الواقعة عنصراً داخل جهاز ثقافي يحدد استقبالاً كل ممكنات التدليل داخلها.

٦- مفاهيم سيميائية:

وقد افرد الباحث الفصل الأخير من الكتاب لتحديد المفاهيم المركزية في حقل السيميائيات والتي من دونها يتعذر على القارئ الاستئناس بقضايا واشكالات هذا الحقل المعرفي: إذ أن ضبط الجهاز المفاهيمي الخاص بالسيميائيات شرط أساسي للدخول إلى ملكوتها وإذا كان كل حقل علمي يتحدد بموضوع خاص به ومنهج يقارب به طبيعة هذا الموضوع فإن خصوصية أو هوية العلم تتجسد بشكل أعمق في الجهاز المفاهيمي الذي أنتجه فالمفاهيم هي المجال الذي تتحقق فيه أصالة الإبداع الفكري ألم يحدد دولوز الفلسفة باعتبارها إبداعا للمفاهيم" وأن الفيلسوف الحق هو ذلك الذي يبحث مفاهيم جديدة؟

لكن يمكن للمفاهيم أن ترحل من حقل علمي إلى آخر كما هو الحال في مجال العلوم الانسانية التي تتميز بترحال المفاهيم من علم لآخر مما ينجم عنه التعدد الدلالي للمفاهيم تبعاً لتعدد استعمالاتها العلمية وهو ما يحتم في حالة المفاهيم السيميائية ابراز خصوصيتها. فما يميز حقلاً علمياً كالسيميائيات هو استعماله الخاص للمفاهيم هذا الاستعمال الذي يتجاوز ما توفره هذه المفاهيم المتداولة من إمكانات دلالية وذلك باكساب تلك الامكانات قيما جديدة وفي هذا الأطار يكون من اللازم فصل المقال فيما بين مفاهيم السيميائيات ومفاهيم الحقول الأخرى من الاتصال وهو ما قام به الأستاذ سعيد بنكراد ويأمل الباحث من وراء ذلك إلى تقديم مجموعة من التوجيهات العامة التي تساعد القارئ على فهم الكون المعرفي الذي تحيل عليه السيميائيات وكذا طريقتها في التعاطي مع الأنشطة السلوكية الصادرة عن الإنسان"ص١٦٥ .

 # كاتب مغاربي

يا أنت في الأعماق

محمد عبد الرحمن السندي

كن ما كتبت لكي تكون
بك أول الغيث أبتدا
فمن القصيدة ما جرى
ومن القصيدة عالم
ومن القصيدة لو هوى
ومن القصيدة ما الذي
بندى القصيدة يورق
تاهت رؤى الداجين
إلا رؤاك بصدقها
ولأنت تصبح كالحياة
عبث الجناة بأفقها
أنت النشيد إذا انتهى
إن شئت أن تخبو ففي
لا عمر عمرك كل ما
احمل يراعك بالتي
واجعل مداد الشعر
إن الذين لو انبروا
كم قد تباكوا دمنة
لو كان فيهم مبدأ
سفكوا دماء الشعر
يا أنت في الأعماق
يا أنت يا وعد القصيدة
وعياً يغامر في الجنون
حرفاً وشاعره الهتون
مجرى الحقيقة في العيون
تبنيه يسكنه الشجون
لا نشق تاريخ الحزون
بعطيك أسرار القرون
الحلم المطل بلا غصون
خلف سرابها وبدت ظنون
ستظل بارقة الدجون
لأمة دمها هجين
فزهت بحاضرها اللعين
ودناك مشرعة اللحون
النسيان تأتلق الفنون
قد كنت تحسبه سنين
قد كان باعثها دفين
إيماناً بأحرفه ودين
لأتوك بالكذب المبين
رقصت بمنعرج البطون
لرأيك حامله خؤون
تصبو حبيبته المصون
مشتعلاً وفي كلمي أتون
فلتكن أو لن تكون

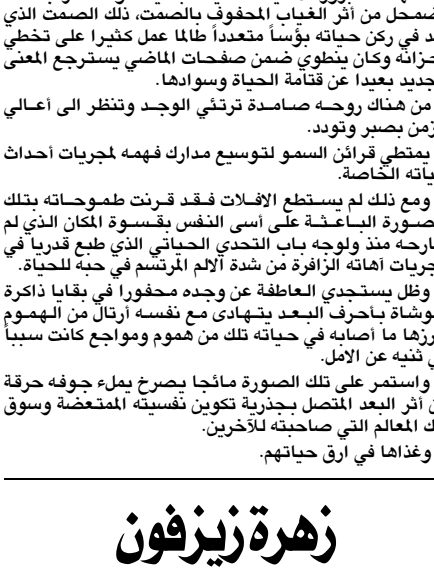

الآمال المكسورة في حنايا العمر

حاتم علي المهدي

●،، تودد اليها في أحايين كثيرة واستجدى منها عبرات تبقيه على الحياة بقدارات يستوحي منها دلالة البقاء.لكنة لم يفلح في تقديره وسعيه. ذلك أن معيار بقائه كان مرهوناً بحبها الذي يشبه الظل الافقي.

وكان نسيانها صعباً لما لذلك من تبعات نفسية شعوره بعدم اتصالها من مفردات آماله المكسورة في حنايا عمره القصير معها.

ظل ذلك المكان وصمته كانا كفيلين بوصفه عاشقا من طراز جديد لايدرك معنى لتلك الخرافات من المحبة التي تعتنق الجفاء الحسي عند بعض من مخلوقات الله.. فأزلية الهيام الذي طبع عليه لم يمكث طويلا فقد لاشته معاناته عندما استمد نظرته من قيم لايملكها سوى الآخرين كصور تتغير معالمها عند بروز الأشياء المحيطة بحياته واستمر جسمه يضمحل من أثر الغياب المحفوف بالصمت، ذلك الصمت الذي ولد في ركن حياته بؤساً متعدداً طالما عمل كثيرا على تخطي أحزانه وكان ينطوي ضمن صفحات الماضي يسترجع المعنى الجديد بعيدا عن قتامة الحياة وسوادها.

من هناك روحه صامدة ترتثي الوجد وتنظر الى أعالي الزمن بصبر وتودد.

يمتطي قرائن السمو لتوسيع مدارك فهمه لمجريات أحداث حياته الخاصة.

ومع ذلك لم يستطع الافلات فقد قرنت طموحاته بتلك الصورة الباعثة على أسى النفس بقسوة المكان الذي لم يبارحه منذ ولوجه باب التحدي الحياتي الذي طبع قدريا في مجريات أهاته الزافرة من شدة آلام المرتسم في حبه للحياة.

وظل يستجدي العاطفة عن وجده محفورا في بقايا ذاكرة موشاة بأحرف البعد يتهادى مع نفسه أرتال من الهموم ابرزها ما أصابه في حياته تلك من هموم ومواجع كانت سبباً في ثنيه عن الأمل.

واستمر على تلك الصورة مائجا يصرخ يملء جوفه حرقة من أثر البعد المتصل بجذرية تكوين نفسيته الممتعضة وسوق تلك المعالم التي صاحبته للآخرين.

وغذاها في ارق حياتهم.

زهرة زيزفون

الازهري عبدالملك السنباني

لا تقرأي ما يكتبون
وتعلمي
أن تسرحي كالاضوء
ما بين الشواطئ والعيون
أن ترقبي ميلاد شمس
الصبح
ميساء وارفة الجفون
في دمي... غضا كزهر
الزيزفون
لا تسألي
كم تبقى من الرمل حياً
على شاطئ البحر..؟
أي المدائن.. ثكلى
أي النساء.. بغايا..
ارسميني زهوراً
على ناهديك
اجمعيني على أمنيات
الغلايا.. قلادة
انشريني اريجاً
على شرفات المدى
أنت التي تملكين غدي
وارتحالي
زهر المواسم
فيما مضى من جلالي
وسقوط الشجر
حين.. النوارس ولهى
والرجال.. الرجال مطايا

قصة قصيرة

الطريق القديم

محمد حمادي أحمد

●، لعلها المرة الاولى التي اتجشم فيها مشقة العبور من ذلك الطريق المتعرج والذي يمر بجانب القبة المنتصبة جوار جامع القرية الرابض منذ أكثر من ثمانية قرون.

كانت الليلة حالكة الظلمة، الوقت متأخراً بعض الشيء، مخاطر لاتعد ولاتحصى تترصدني في ذلك الطريق، أفاعٍ عقارب وكلاب متشردة، عفاريت بالجملة.

كانت تقص علي جدتي بعضا من تعدياتهم على بعض المارة ذات مرة قالت لي:

– هم خلق من خلق الله لكنهم عفاريت يتشكلون باشكال مختلفة، يظهرون للجبناء فقط، ومما في كلام جدتي من ايحاء لي وتعريف ضمني أن الجبان يتخيل مالايوجد وتنسج مخيلته احداثا لاوجود لها.. الا ان خوفي كان يزداد كلما فكرت مجرد الفكرة بالمرور من هنا.

أخبرتني ان أحدهم خرج ذات ليلة قاصدا احد المنازل الواقعة في اطراف القرية، قالت:

– كان الظلام مخيفا والهدوء يثير الرعب والخوف، وعلى مقربة من بئر قديمة سمع صوتا قادما من الاعماق، اقشعر بدنه، تسمرت قدماه، لم يسعفه لسانه حتى يستنجد، في اليوم التالي اصبح معتوها.

انصت لها في خوف ووجل شديدين، أقسمت باغلظ الايمان ألا أمر ماحييت من تلك الطريق.

مرت السنين والاعوام، أصبحت رجلا، كبرت وكبر خوفي معي،

هل تصدقون الليلة حاجتي ملحة للمرور في الطريق القديم الذي كان في السابق طريقا رئيسيا، وهو الوحيد الذي يربط قريتنا بالمدينة، غير ان الامر قد تغير، شق طريق اسفلتي على الجانب الآخر للقرية.

وها أنا أجازف مرورا بالطريق القديم لإيصال رسالة الى رجل طاعن في السن يقطن بقعة من الارض على حافة الطريق القديم خلف الجامع، لم يكن بامكاني الانتظار حتى الصباح لأن الذي اعطاني الرسالة قال لي بالحرف الواحد:

– يجب ان تسلمه الرسالة ولاتتاخر. ترددت كثيرا قبل ان اقبل المهمة، لكنني خجلت ان ينعتني بالخواف حين سألته – لماذا لاتوصلها بنفسك؟

اجابني بقوله – لدي عمل مهم، لعله كان خائفا هو الآخر أخذت الرسالة منه ومضيت، شعرت بثقل في قدمي وبانفاسي تتلاحق، والعرق يتصبب من جبيني، حاولت ان اعود لأعتذر من صاحبي لكن نخوتي أبت عليّ إلا القيام بالمهمة، أخذت مصباحي الكهربائي، ومضيت أجر قدمي جرا.

الطريق طويل ومخيف ، لاوجود للسايلة، أصبحت المهمة اصعب من تحرير بيت المقدس، كذلك ظننتها تحاملت على نفسي ومشيت، تلوت آية الكرسي، وخواتيم سورة البقرة تحصنا، في منتصف الطريق شعرت بانسلال شيء ما على قدمي، انخلع قلبي هلعا، سقط المصباح، حين انثنيت لالتقاط المصباح كانت قشة خفيفة لامست قدمي،

نظرت الى الامام، البيت تراءى لي بعيداً جدا.

ويوغل في الابتعاد اكثر فاكثر، فتيلة قنديلة تتموج مع هبات النسيم، خيل لي انها تهزأ بي، نباح الكلاب جعلني مزعزعا وجلا، تذكرت كل قصص جدتي التي حكتها لي في طفولتي، الجمل الذي لاعنق له، الحمار الذي تتقد عيناه شرراً، وحكايا ينخلع لها القلب.

ركزت نظري على ماتبقى من الطريق، تاركا خلف ظهري للمقادير، كانت ثمة اشياء تحدث حولي لم أعرها أي اهتمام.

انصب همي جله في اجتياز الطريق وصولا الى منزل الرجل المسن، كنت كلما تقدمت خطوة شعرت وكأني خلفت ورائي عالما من الجن والمردة والعفاريت، وان بانتظاري مسيرة حاشدة من تلك الارواح الشريرة.

فجأة لمحت شعلة عملاقة تتأجج نيرانها وتلتهم كل شيء تمر به كانت آتية من خلف بيت الرجل المسن، جمدت في مكاني ، التهمت تلك الشعلة البيت، وهاهي تواصل زحفها نحوي، أردت رفع عقيرتي مستنجدا بصوتي المبحوح لكنه خذلني، حين داهمتني الشعلة النارية، لم أشعر بعدها بشيء.

غبت عن الوجود، ظننت اني انتقلت الى عالم الاموات حينما انتبهت كان صاحب السيارة القادمة يهون الامر علي ويهدأ من روعي، كان نور سيارته لازال يشق الظلام...